سلاجقة الروم و خراسان

اولا- سلاجقة الروم

يرجع الفضل في توطيد نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى الى السلطان ملكشاه ابن ألب ارسلان (465 - 485 هـ) وكان السلاجقة قد بدأوا بالتدفق على آسيا الصغرى بأعداد كبيرة بعد موقعة ملاذكرد التي حقق فيها السلاجقة انتصارا كبيرا على الروم البيزنطيين . في سنة (463 هـ/ 1071 م)ولما آلت السلطة الى ملكشاه بن آلب ارسلان في سنة 465 هـ أدرك أهمية السيطرة على منطقة اسيا الصغرى وترسيخ الوجود السلجوقي في المناطق المتاخمة لبلاد الروم، فرأى أن المصلحة تقضي بتعيين من ينوب عنه في حكم اسيا الصغرى ويتابع الحرب ضد البيزنطيين، فعين في سنة (470 هـ/ 1077م) سليمان بن قلتمش بن اسرائيل واليا على آسيا الصغرى وولاه قيادة الجيوش السلجوقية في المنطقة ، ومنحه الحق في التوسع على حساب الروم .

فعمل سليمان بن قلتمش على ترسيخ نفوذ السلاجقة في آسيا الصغرى، وتطلع إلى ضم المزيد من الأقاليم المجاورة إلى حوزته ليكون مقدمة لدولة سلاجقة الروم، وقد ساعدت الحالة التي امسيت عليها اسيا الصغرى سليمان بن قتلمش على تحقيق أهدافه وتنفيذ سياسته التوسعية. فقد هجر كثيرون من سكان آسيا الصغرى ارضهم وخصوصا في الجهات الشرقية والشمالية من شبه الجزيرة مما ترك الطريق مفتوحا أمام السلاجقة لاحتلال القرى التي هجرها سكانها البيزنطيين في آسيا الصغرى .

كما أن سوء الأوضاع الداخلية في بيزنطة قد ساعد السلاجقة ومنحهم فرصة التدخل في شؤون الامبراطورية التي اصبحت مسرحا للحروب الأهلية بين الطامعين في العرش البيزنطي، وبلغ من تردي الأوضاع في بيزنطة خلال القرن الحادي عشر أن تولى عرش الامبراطورية في مدى ست وخمسين عاما (1025-1081م) ثلاثة عشر امبراطورا منهم امرأتان، بمعدل أربع سنوات تقريبا لكل امبراطور، مما يدل على حالة عدم استقرار التي كانت تمر بها الامبراطورية البيزنطية في هذه المرحلة من تاريخها . وقد اتاحت هذه الظروف للسلاجقة التدخل في الصراع القائم بين الطامعين في العرش البيزنطي، والذين دأبوا على الاستعانة بالسلاجقة للوصول الى الحكم مقابل منحهم المزيد من الأراضي الامبراطورية، فتهيا للسلاجقة في فترة وجيزة فرض سلطانهم على مناطق جديدة امتدت من البحر الاسود شمالا حتى شواطىء البحر الأبيض جنوبا، وبسطوا نفوذهم على نيقية ونيقوميديا والبسفور، واندفع سليمان بن قتلمش الى ليديا وايوانيا وضمهما إلى حوزته ، واقام بذلك أول أمارة سلجوقية في الأناضول واتخذ مدينة نيقية عاصمة له، ثم اعلن نفسه سلطانا على سلاجقة الروم .

وتطلع سليمان بن قتلمش نحو بلاد الشام، وكان لابد له قبل الشروع في التوسع نحو الجنوب الشرقي ان يزيل من طريقه أنطاكية التي أقام فيها احد زعماء الأرمن - فيلارتيوس براخاميوس - اول امارة أرمنية، فانتهز سليمان فرصة الاضطراب الذي عم بلاد فيلارتيوس نتيجة لتآمر ابنه ضده، واسرع مهاجمة انطاكية فجأة واستولى عليها سنة (477 هـ /1085م) ، فامتد بذلك نفوذ السلاجقة إلى سواحل البحر الأبيض المتوسط وبدأ سليمان بن قتلمش يستعد لضم اجزاء جديدة من بلاد الشام .

وكان استيلاء سليمان على انطاكية قد فجر النزاع بينه وبين الأمير شرف الدولة مسلم بن قريش العقيلي امير الموصل الذي ادعى أحقيته في ملكها، حيث كان فيلارتيوس يحكمها بوصفه تابعا لامير الموصل ويدفع له الجزية. وقد أدى هذا الوضع إلى نشوب الحرب بين السلاجقة بقيادة سليمان بن قتلمش والامير مسلم بن قريش، انتهت بهزيمة الأخير ومقتله في سنة 478 هـ / 1085 م وواصل قتلمش توغله في بلاد الشام وقصد حلب وحاصرها حصارا شديدا، فاستنجد حاكمها بتاج الدولة تتش، فاسرع الأخير لصد سليمان عن حلب ، ودارت بين الطرفين معركة حامية على ابواب حلب انتهت بانتصار تتش ومقتل سليمان بن قتلمش في شهر صفر من سنة (479 هـ /1086 م).

واصبح تتش بعد انتصاره على سليمان بن قتلمش سيد الموقف في بلاد الشام باكملها، الأمر الذي أثار مخاوف السلطان ملكشاه الذي خشي من تعاظم نفوذ اخيه تتش في بلاد الشام، فقرر التدخل لإقرار الأوضاع في هذا الجزء من املاك الدولة السلجوقية مستغلا اخيه تتش في بلاد الشام، فقرر التدخل لإقرار الأوضاع في هذا الجزء من أملاك الدولة السلجوقية مستغلا اصرار أهل حلب على تسليم المدينه الى السلطان ملكشاه نفسه، فلما اقترب من حلب، رحل تتش عنها الى دمشق فدخل ملكشاه حلب وأحسن إلى أهلها وولى على حكمها قسيم الدولة (آقسنقر) ، ثم توجه الى انطاكية وتسلمها من الحسن بن طاهر وزير سليمان بن قتلمش واقطعها الى الأمير ياغي ميان.

وترتب على مقتل سليمان بن قتلمش نتائج خطيرة كان لها أثر بعيد في الأحداث التالية، فسليمان لم يخلف سوى طفلا صغيرا هو قلج ارسلان داود، فتهيأت الفرصة لصغار الأمراء من التركمان للظهور، كما أن عدم وجود رجل قوي من زعماء السلاجقة في آسيا الصغرى في هذه الفترة بالذات أمر له أهميته العظمى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى، فتمكن الصليبيون من شق طريقهم إلى الشام واستولوا على نيقية بعد ان مني السلاجقة بهزيمة ساحقة في موقعة (ضورليوم) في عام (491 هـ / 1097 م) ، هذا بالاضافة الى ان مقتل سليمان بن قتلمش كان قد أثار الفرقة في صفوف السلاجقة، وجعل سلاجقة الروم لا يغفرون لسلاجقة فارس والشام ذلك الجرم، وكان لذلك أثره الخطير في فشل السلاجقة وعجزهم عن مقاومة الغزو الصليبي .

والواقع أن مصرع سليمان بن قتلمش ترك فراغا لدى السلاجقة في آسيا الصغرى، فاصبحت هذه البلاد دون حاكم قوي ما بين سنتي (1086 م - 1092م) ، فقد قضى ولده قلج ارسلان هذه الفترة في فارس تحت رقابة السلطان ملكشاه، الأمر الذي اتاح للامراء المحليين مثل (أبي القاسم أمير نيقية)و(زاخاس أمير ازمير) و(الملك غازي بن دانشمندا امير كابادوكيا) على الاستقلال باماراتهم، وتطلع أبو القاسم امير نيقة عاصمة السلاجقة - للتربع على عرش السلاجقة في آسيا الصغرى، فحاول ملكشاه القضاء عليه وارسل ضده حملة حاصرته في نيقة سنة 1086 م الا أن أبا القاسم تمكن من رد جيوش السلطان بفضل المساعدة التي أمده بها الامبراطور البيزنطي الكسيوس كومنين، الا انه لم يلبث أن طلب عفو ملكشاه ودخل في طاعته، فقتله الأخير في سنة (485 هـ/1092م) .

وبعد وفاة ملكشاه سنة 485 هـ /1092م اطلق ولده بركياروق سراح قلج ارسلان بن سليمان بن قتلمش فتوجه إلى الأناضول وغدا حاكم نيقية وزعيم سلاجقة الروم، وقد دخل قلج ارسلان في صراع مع بني دانشمند، في كابادوكيا حول مدينة ملطية، في الوقت الذي بدأت في قوات الصليبين تتدفق على المنطقة وحاول قلج ارسلان وقف تقدم الصليبين في آسيا الصغرى ومنعهم من مواصلة زحفهم إلى بلاد الشام، إلا أنه فشل في ذلك وسقطت مدن آسيا الصغرى الواحدة تلو الأخرى بأيادي الصليبين، وكان سقوط نيقة عاصمة قلج ارسلان ثم هزيمته في موقعة ضورليوم بعد ذلك تعتبر طعنة قاتلة لهيبة الدولة السلجوقية ومكانتها في الأناضول .

ثانيا -انقسام السلاجقة

تعتبر وفاة السلطان ملكشاه من أهم الأحداث التي وقعت في تاريخ السلاجقة، فقد انتهى باختفاء السلطان عهد القوة والاتحاد وبدأ عهد جديد من الضعف والانقسام كان من أبرز سماته التناحر حول العرش وتفجر الصراع بين افراد البيت السلجوقي، ولم تعد الدولة في هذا العصر تخضع لسلطان واحد، بل صار يتنازعها اكثر من سلطان في وقت واحد، وانصرف السلاجقة عن اهدافهم في التوسع والمحافظة على حدود الدولة السلجوقية . واصبح همهم القضاء على بعضهم البعض، مما ادى بالدولة التي التمزق والضعف ثم الانهيار .

فبعد وفاة ملكشاه اندلع النزاع بن بركياروق الابن الأكبر لملكشاه يؤيده ابناء نظام الملك وبين اخيه محمود الذي تسانده أمه تركان خاتون ويناصرها تاج الملك الشيرازي الذي خلف نظام الملك في منصب الوزارة، وقد استطاعت تركان خاتون ان تحمل الخليفة إلى الاعتراف بابنها محمود سلطانا على السلاجقة، وخطب له في بغداد في شهر شوال من سنة 485 هـ /1092م . وكان بركياروق آنذاك في اصفهان فأمرت تركان خاتون اتباعها هناك بالقبض عليه.

غير أن أصحاب بركياروق مالبثوا أن أنقذوه من سجنه ونادوا به سلطانا على السلاجقة فاصبح هناك سلطانان في وقت واحد، محمود في بغداد ، وبركياروق في اصفهان ، فكان لابد من الصدام بين المعسكرين ، وكانت تركان خاتون هي البادئة ، غير أن اتباع بركياروق مالبثوا أن جمعوا صفوفهم والحقوا بجيشها هزيمة حاسمة بالقرب من بروجرد ، وقتلوا الوزير تاج الملك انتقاماً لنظام الملك .

على أن الصراع حول العرش لم يقتصر على الأخوين محمود وبركياروق . فقد ظهر منافس اخر لبركياروق وهو عمه تتش الذي وجد نفسه أحق بالسلطنه ، وكان تتش حينئذ يتولى حكم دمشق وما جاورهما من مدن الشام من قبل اخيه ملكشاه، فشرع في التحرك لتحقيق هذا الهدف ، وتقدم الى حلب ونجح في الاستيلاء عليها ثم أخضع أنطاكية والرها وحران والرحبة ونصيبين، كما ضم الى نفوذه كل من الموصل وديار بكر وأذربيجان ، وأصبح يشكل خطرا كبيرا على بركياروق، فبادر الى حشد الجيوش والطاقات لمواجهة عمه تتش، فسار نحو أذربيجان، وانضم اليه عدد كبير من أمراء جيش تتش وفاء منهم لسيدهم السلطان ملكشاه، الأمر الذي اضعف كفته فأثر العودة الى الشام، فاستقامت بذلك الامور لبركياروق في عام 486 هـ .

ولم يكد بركياروق ينتهي من مشكلة عمه تتش حتى واجه فتنة أخرى قام بها خاله اسماعيل بن ياقوتي أمير أذربيجان، فقد تحرك اسماعيل هذا بتحريض من تركان خاتون التي وعدته بالزواج منها، فجمع جيشا كبيرا من التركمان واشتبك مع جيش بركياروق في معركة فاصلة انهزم على أثرها وفر الى اصفهان حيث لجا إلى تركان خاتون فأكرمته وامرت بذكر اسمه في الخطبة على منابر اصفهان كما أمرت بنقش اسمه على الدينار بعد اسم ولدها محمود غير ان اسماعيل لم يكن مطمئنا الى وجوده في اصفهان، فرحل عنها ملتجأ الى اخته زبيدة خاتون ام بركياروق ، ويبدو أنه أفصح أمام بعض الأمراء عن حقده على بركياروق، فوثبوا عليه وقتلوه في شعبان من سنة 486 هـ .

أما بركياروق فقد سار الى بغداد في ذي القعدة من سنة 486 هـ واعترف به الخليفة المقتدي بأمر الله سلطانا على السلاجقة وخطب بأسمه في اليوم الرابع عشر من شهر محرم سنة 487 هـ ، ومنحه لقب (ركن الدين) ، ثم توفي الخليفة في اليوم التالي فخلفه ولده المستظهر بالله واعترف ببركياروق ايضا .

وفي هذه الأثناء كان تتش منهكما في جمع العساكر والاستعداد لمواجهة بركياروق، ثم شرع في التحرك نحو حلب وتمكن من الاستيلاء عليها في الحادي عشر من جمادي الأولى سنة 487 هـ ، وواصل تقدمه إلى ديار بكر فضمها إلى نفوذه، ثم رحل إلى ميافارقين ومنها الى الري، وانضم اليه عدد كبير من التركمان الذي كانوا يرافقون تركان خاتون التي

توفيت في رمضان سنة 487 هـ، كما انضم اليه قسم من جيش بركياروق، فتضاعفت قوته واستولى على اذربيجان وهمذان، وخطب له بالسلطنة على منابر الشام وبغداد، وارسل الى ولده رضوان حاكم دمشق يأمره بالمسير اليه فيمن معه من عساكر الشام ، فأضطر السلطان بركياروق للرحيل عن اصفهان، فحاول اهلها منعه، ثم أذنوا له وخرج اليه أخوه محمود ودخل معه البلد، ولم يلبث محمود أن توفي في شوال من سنة 487 هـ ، فأنضم انصاره الى بركياروق، كما قصده مؤيد الملك بن نظام الملك فاستوزره في ذي الحجة من السنة المذكورة، فتمكن من استمالة عدد من الأمراء العراقيين والخراسانيينة وانضموا إلى بركياروق، ودارت بين الأخير وعمه تتش معركة فاصلة انتصر فيها بركياروق وقتل تتش وحمل رأسه إلى بغداد .

وبمقتل تتش تخلص بركياروق من أخطر منافس له، واستقامت له السلطنة بعد صراع دامي استمر سنتين وبضعة أشهر، الا أن آثار هذا الصراع لم تنته فقد تمزقت وحدة السلاجقة واصبح لا هم لهم سوى الظفر بالعرش وقلدهم في ذلك وزرائهم ، فتنافسوا على الظفر بالوزارة أو القيادة، وتفككت الدولة السلجوقية واخذت ، تسير حثيثا نحو الانهيا .

ولم يمض وقت طويل على اخماد فتنة تتش حتى واجه بركياروق حركة جديدة من جانب أخيه محمد بن ملكشاه الذي خطب لنفسه بالسلطنة في سنة 492 هـ ، بتحريض من الوزير مجد الملك، واستطاع محمد ان يلحق باخيه بركياروق وتوجه الى همذان واعلن نفسه سلطانا على الدولة السلجوقية واعترف به الخليفة العباسي وخطب له ببغداد ولقبه (غياث الدنيا والدين) .

وهكذا أصبح هناك سلطانان في وقت واحد معترف بهما من الخليفة العباسي بسبب الاختلاف الذي نشأ على كرسي الوزارة، وانعكس ذلك على الدولة السلجوقية وأدى إلى تمزقها وضعف قوتها، وطالت الحروب بين بركياروق وأخويه محمد وسنجر. وفي سنة 497 هـ تم عقد الصلح بين بركياروق ومحمد على أن تكون المناطق الشمالية لمحمد، بينما يسيطر بركياروق على الأقاليم الجنوبية، وأن يحمل كل منهما لقب السلطنة، وعلى أن تترك خراسان وما وراءها بيد سنجر. وقد استمر هذا الاتفاق حتى وفاة بركياروق في شهر ربيع الثاني من عام 498 هـ / 1104م .

وتجدد الصراع بين السلاجقة بعد وفاة السلطان محمد بن ملكشاه في عام511 هـ في الوقت الذي كان فيه أعداؤهم يحدقون بهم من كل جانب، وكان محمد قد أمر قبيل وفاته بأسناد السلطنة الى ولده محمود وكان في الرابعة من عمره ، وقد وافق الخليفة المستظهر بالله على ذلك وخطب لمحمود على منابر بغداد (4)، غير أن عمه سنجر الذي كان يلى حكم خراسان أنف أن يكون تابعا لابن أخيه، فأعلن نفسه سلطانا على السلاجقة وهكذا وجد سلطانان في وقت واحد، واصبح واضحا أن دولة السلاجقة في ايران والعراق قد صارت

قسمين متميزين : -
1- سلاجقة الشرق أو سلاجقة خراسان ويمثلهم سنجر
2- مسلاجقة الغرب او سلاجقة العراق ويمثلهم محمود
مما أدى الى قيام الصراع بين المعسكرين ، فجرت بينهما سلسلة من الحروب انتهت بأنتصار السلطان سنجر واعتراف الخليفة العباسي به سلطانا على السلاجقة .

على أن السلطان سنجر ما لبث أن عطف على ابن أخيه وعينه وليا لعهده واعاد اليه جميع ما أخذه من البلاد عدا مدينة الري التي اتخذها سنجر قاعدة له ليكون على مقربة من محمود، فانتهى بذلك فصل آخر من فصول النزاع السلجوقي، بعد أن أصبح كل جزء من أجزاء الدولة في ايران والعراق واسيا الصغرى والشام يكاد يكون مستقلا يصرف شؤونه حكامه دون اتصال أو تعاون بينهم، وكان كل من سنجر ومحمود يحمل لقب سلطان، واستمر هذا الوضع بعد وفاة محمود في سنة 525 هـ، فأصبح هناك سلطان لسلاجقة العراق على الرغم من وجود السلطان الاعظم سنجر في خراسان.